الشاهد الشعري

في تفسير أبي السعود

الدكتور / عبد الحق عبد الدائم القاضي
الأستاذ المساعد في قسم القرآن الكريم بكلية التربية
جامعة صنعاء

الشاهد الشعري في تفسير أبي السعود

د. عبد الحق عبد الدائم القاضي
كلية التربية – جامعة صنعاء

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه المبين: (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) الشعراء ١٩٣-١٩٥، والصلاة والسلام الاتمان الأكملان على خير الأنام محمد بن عبد الله النبي الأمي القائل: (أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه) [١] وعلى آله وصحابته العرب الفصحاء الذين نزل القرآن بلغتهم ففهموه وطبقوه في جميع شؤون حياتهم وبعد :

فلا شك أن العرب كانت لهم وقائع وأيام أثارت عصبياتهم وافتخروا بها بين الأمم، حيث إنها تدل على طبائعهم وأخلاقهم وعاداتهم.

وقد كان للشعر مكانة مرموقة، ومنزلة رفيعة لا تخفى على كل مهتم بهذا الشأن قديماً وحديثاً، فهو سجل حافل لكل ما يجري من أحداث في حياتهم، سواء من الناحية الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية، وهو أيضاً مرآة ناطقة بأخلاقهم وفضائلهم وعاداتهم وشمائلهم [٢].

هذا وقد كان للعرب كثير من الوقائع العظيمة التي هاجت قبائلهم، وأثارت عصبياتهم، تحدث عنها شعراؤهم فكانت مادة رائعة لسمَّارهم ومحدثيهم خلال حقب طويلة وعصور بعيدة، وقد سميت هذه الوقائع بأيام العرب [٣].

قال عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا [٤].

ولم يقتصر تأثير الشعر على تسجيل الوقائع والأحداث فحسب بل امتد إلى التأثير في حياتهم اللغوية، ولعل خير ما يصور ذلك التأثير أسواقهم المشهورة، كسوق " عكاظ" التي كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم، وينشد الشعراء قصائدهم (٥).

وقد ذكر الإمام السيوطي –رحمه الله– كلاماً رواه عن ابن عباس يشير فيه إلى أهمية الشعر في حياة العرب فقال: (وقال ابن عباس: الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه)(٦).

وتبع علماءَ اللغةِ علماءُ النحو إذ اتخذوا الشعر مصدراً أساساً يحتكمون إليه في تقعيد قواعد العربية ووضع الأسس الأولى لعلم سمي فيما بعد بعلم النحو.

وإذا أمعنا النظر في كتاب سيبويه وجدنا أنه اشتمل على ألف وخمسين شاهداً، وفي ذلك يقول الجرمي: (نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتاً)(٧).

ولم يقف الأمر عند اللغويين والنحويين فحسب، بل تعدى ذلك إلى المفسرين الذين عنوا عناية كبيرة بالشعر، إذ اعتمدوا عليه في تفسير كثير من الألفاظ التي استغلقت عليهم، ولم يكن هذا جديداً أو محدثاً بل كان بعض كبار الصحابة ومنهم حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس، إذا سئل عن معنى كلمة من القرآن الكريم استشهد ببيت من الشعر.

قال أبو عبيد في فضائله: حدثنا هشيم عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عبد الرحمن بن عتبة عن ابن عباس أنه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر قال أبو عبيد: يعني كان يستشهد به على التفسير (٨).

ولعل اصدق مثال على ذلك ما جرى بين نافع بن الأزرق وعبد الله بن عباس عندما سأله عن قوله تعالى: " عن اليمين وعن الشمال عزين" الآية ٣٧ من سورة المعارج.

قال: العزون حلق الرفاق، قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: (وحناناً من لدنا) الآية ١٣ من سورة مريم.

قال:قال رحمة من عندنا. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم: أما سمعت قول طرفة بن العبد :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض (٩)

وهكذا فإن كتب التفسير مليئة بالشواهد النحوية واللغوية التي تعد جزءاً أساساً من قواعد فهم معاني ألفاظ القرآن وإعراب ما اختلف في إعرابه من آياته، ونحن حينما نتكلم عن الشاهد الشعري إنما نقصد الشواهد الشعرية في عصور الاحتجاج، وهي العصور الثلاثة الأولى : العصر الجاهلي ، وعصر صدر الإسلام ، والعصر الأموي.

وإذا ما ألقينا نظرة على عدد من التفاسير التي بين أيدينا لرأينا صحة ما ذكرناه آنفا، غير أن هناك تبايناً من حيث العدد الذي استشهد به كل مفسر، فالإمام الشوكاني – رحمه الله – ملأ تفسيره بالشواهد الشعرية، حتى إنك لا تكاد تلقي نظرة على أي صفحة من صفحاته إلا ويقابلك شاهد أو أكثر، بينما التفسير الذي نحن بصدد دراسة شواهده لم يكن بهذه الكثرة مقارنة بتفسير فتح القدير.

وقبل أن ندخل في الموضوع نذكر نبذة مختصرة عن تفسير أبي السعود ومؤلفه، حتى يتضح للقارئ منزلة هذا التفسير بين كتب التفاسير وما تميز به كاتبه من علم غزير، فتفسير أبي السعود الموسوم بـ

(**إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**) – وهو ما نحن بصدد الحديث عن الشاهد الشعري فيه– .

يعد من أحسن التفاسير بالرأي المحمود، وقد بلغ غايته في الحسن والإبداع وجمال التعبير، كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية بما لم يسبقه أحد إليه، ومن أجل ذلك ذاعت شهرة هذا التفسير بين أهل العلم، وشهد له العلماء بأنه خير ما كتب في التفسير، فصاحب العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم يقول عنه في كتابه: "وقد أتى فيه بما لم تسمع به الأزمان، ولم تقرع به الآذان، فصدق المثل القائل كم ترك الأول للآخر، وهو تفسير حسن ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، متضمن لطائف ونكات، ومشتمل على فوائد وإشارات، انتشرت نسخه في الأقطار، ووقع له التلقي بالقبول من الفحول الكبار لحسن سبكه وصدق تعبيره، فصار يقال له خطيب المفسرين"(١٠) .

يقول أبو السعود في مقدمة تفسيره ما ملخصه: لقد اقتصر المتقدمون المحققون على تمهيد المعاني وتشييد المباني وتبيين المرام وترتيب الأحكام حسبما بلغهم من سيد الأنام– عليه شرائف التحية والسلام، أما المتأخرون المدققون فراموا مع ذلك إظهار مزاياه الرائعة وإبداء خباياه الفائقة ليعاين الناس دلائل إعجازه، ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازه عن سائر الكتب القديمة الكريمة، فدونوا أسفاراً بارعة جامعة لفنون المحاسن الرائعة، يتضمن كل منها فوائد شريفة تقر بها عيون الأعيان، وعوائد لطيفة يتشنف بها آذان الأذهان لا سيما الكشاف للزمخشري، وأنوار التنزيل للبيضاوي،

المتفردان بالشأن الجليل والنعت الجميل، حيث أحرز كل منهما قصب السبق أي إحراز كأنه مرآة لاجتلاء وجه الإعجاز،

ولقد كان في سوابق الأيام وسوالف الدهور والأعوام أوان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما ومدارستهما يدور في خلدي على استمرار آناء الليل وأطراف النهار، أن أنظم درر فوائدهما وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق، وأضيف إليهما ما ألفيته في تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق وصدفاته بأسلوب بديع حسبما يقتضيه جلالة شأن التنزيل ويستدعيه جزالة نظمه الجليل[١١] .

وبالرغم من اعتماده على الكشاف فيما يتعلق بالبلاغة القرآنية وفنونها، إلا أنه لم يغتر – كما يقول الدكتور الذهبي – بما جاء في الكشاف من الاعتزاليات، ولهذا لم يذكرها إلا على جهة التحذير منها مع جريانه على طريقة أهل السنة في تفسيره ...

إلى أن قال : إنه كثير العناية بسبك العبارة وصوغها، مولع كل الولوع بالناحية البلاغية للقرآن، فهو يهتم بأن يكشف عن نواحي القرآن البلاغية وسر إعجازه في نظمه وأسلوبه، وبخاصة في باب الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والاعتراض والتذييل، كما أنه يهتم بإبداء المعاني الدقيقة التي تحملها التراكيب القرآنية بين طياتها مما لا يكاد يظهر إلا لمن أوتي حظاً وافراً من المعرفة بدقائق اللغة العربية[١٢] .

أما مؤلف هذا التفسير العظيم فهو العلامة محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، ولد بقرب القسطنطينية سنة ٨٩٨هـ ١٤٩٤م.

درس ودرَّس في بلاد متعددة، وقرأ على والده كثيراً، مثل: حاشية الجريد للشريف الجرجاني بتمامها، وشرح المفتاح للشريف أيضاً، كان يكتب الجواب مراراً في يوم واحد باللغات العربية والفارسية والتركية تبعاً لما يكتبه السائل .

تولى عدة مناصب منها القضاء والإفتاء، وقام بذلك أتم قيام وحصل له من المجد والإقبال والشرف والأفضال ما لا يمكن شرحه بالمقال، ورغم انشغاله بالقضاء والفتوى إلا أنه صرف همته إلى خدمة كتاب الله تعالى فألف هذا السفر العظيم الآنف الذكر، ولما وصل فيه إلى سورة (ص) طلبه السلطان سليمان خان، فبيض الموجود وأرسله إليه، وبعد ذلك أتمه وأنعم عليه السلطان وأكرمه بما لم يدخل عليه الحصر .

له مؤلفات أخرى بعضها مطبوع وبعضها مخطوط، وله أشعار جيده خَلُص كثير منها من ركاكة العجمة .

ومما أخذ عليه – رحمه الله – ميله الزائد إلى أرباب الرئاسة ومداهنتهم، ولعل ذلك كان مما تقتضية المصلحة .

توفى –رحمه الله– بالقسطنطينية وهو لا يزال مفتياً، وصلى عليه المولى سنان صاحب حاشية تفسير البيضاوي، ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري –رضي الله عنه–[١٣].

وقد اعتمد الإمام أبو السعود على عدد غير قليل من الشواهد الشعرية، وعملنا في هذا البحث تتبع هذه الشواهد، وإيضاح أثرها البارز في توضيح الدلالة اللغوية والبلاغية والنحوية وغيرها ...

هذا وقد جعلت هذا البحث في فصلين:–

الفصل الأول:

توثيق الشاهد الشعري عند أبي السعود

وتقتضي هذه الدراسة توثيق وتوضيح النقاط الآتية:

أ) نسبة الشاهد إلى قائله.

ب) اختلاف الرواية.

ت) التصحيف والتحريف.

ث) التكرار.

الفصل الثاني:

دراسة الشاهد من حيث وظائفه المختلفة

وتشتمل على ما يأتي:

١) البرهنة على قاعدة نحوية.

٢) تحديد الدلالة اللغوية للألفاظ القرآنية.

٣) رصد ظواهر اللهجات العربية.

٤) توضيح الجوانب البلاغية.

الخاتمة:

وتشمل على ما يأتي :

١ – المنهج الذي سار عليه أبو السعود، في الاستشهاد، ومدى أهمية الشاهد الشعري في كتب التفسير.

٢ – أهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال هذا البحث.

الفصل الأول :

توثيق الشاهد الشعري في تفسير أبي السعود

١- نسبة الشاهد إلى قائله:

إن المتتبع للشواهد الشعرية في تفسير أبي السعود يجد أن عدداً من هذه الشواهد نسبت إلى قائلها، والبعض الآخر ورد غير منسوب إلى قائل معين، وبعد القيام بإحصاء الشواهد المنسوبة إلى قائليها تبين أنها نحو مئة وستين شاهداً، وسنذكر بعض أمثلة على ذلك .

١) أمثلة الشواهد المنسوبة:

- قوله عند تفسير قوله تعالى: (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) البقرة١٩(١/٥٢).

قال الشماخ :

عفا آية نسج الجنوب مع الصبا وأسحم دان صادق الرعد صيب[١٤]

- قوله عند تفسير قوله تعالى:(اسجدوا لآدم) البقرة ٣٤ (١/٨٧).

فاللام فيه كما في قول حسان – رضي الله عنه –:

أليس أول من صلى لقبلتكم وأعرف الناس بالقرآن والسنن.

- قوله عند تفسير قوله تعالى (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)البقرة ٦١(١/١٠٧).

ويجوز الإشارة إلى المتعدد بتأويل ما ذكر أو تقدم كما في قول رؤبة بن العجاج:

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

- قوله عند تفسير قوله تعالى:(لقد كنت في غفلة من هذا)سورة ق ٢٢(٨/١٣٠).

وقرئ (كنتِ) بكسر التاء [١٥] على اعتبار تأنيث النفس، والتذكير على القراءة المشهورة بتأويل الشخص، كما في قول جبلة بن حريث:

يا نفس إنك باللذات مسرور فاذكر فهل ينفعنَّك تذكير.

٢) أمثلة الشواهد غير المنسوبة:

- قوله عند تفسير قوله تعالى: (أو يأخذهم على تخوف) النحل ٤٧ (١١٧/٥).

تخوف الرحل منها تامكاً قرداً كما تخوف عود النبعة السفن.

- قوله عند تفسير قوله تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى) المائدة ٦٩ (٦٢/٣).

كما في قوله:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف.

- قوله عند تفسير قوله تعالى: (عن اليمين وعن الشمال قعيد) سورة ق-١٧ (١٢٩/٨).

فحذف الأول لدلالة الثاني عليه كما في قولِ من قال

رماني بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن اجل الطوي رماني.

٢-اختلاف الرواية:

أما المسألة الثانية التي لها تعلق بتوثيق الشاهد الشعري فإنها تتعلق باختلاف الرواية.

ولعل المستقري لهذه المسألة يجد أنها تختلف كثيراً عما ظهر في كتب اللغة، ولاسيما المعجمات العربية، ولنأخذ مثلاً على ذلك ما ورد في معجم لسان العرب لابن منظور إذ نجد أن الشواهد التي تكرر الاستشهاد بها في بعض مواده اللغوية

جاءت مختلفة بعض الشيء، وهذا الاختلاف متباين نوعاً ما؛ فقد يكون في الكلمة أو الجملة أو الشطر، ومن أمثلة ذلك ما أورده ابن منظور في لسان العرب حيث أورد شاهدين نلحظ فيهما اختلاف الصدر وبعض الكلم، قال:

فيا بعد ذاك الوصل إن لم تدانه قلائص في آباطهن سفاء. اللسان ١٤/٣٩٠ (سفا)

وما هي إلا أن تقرب وصلها قلائص في البائهن سفاء. اللسان ١٤/٣٩٠ (سفا)

أما عن اختلاف الرواية في الحرف فأورد الشاهدين التاليين :

يرجع بين خرم مفرطات صواف لم يكدرها الدلاء. اللسان ٧/٣٦٩ (قرط)

يُرجع بين خرم مفرطات صواف لم تكدرها الدلاء. اللسان ١٢/١٧٠ (خرم)

ومن اختلاف الرواية قوله:

ترعى الروائم أحرار البقول ولا ترعى كرعيكم طلحاً وغسُّولاً. اللسان ١١/٤٩٤ (غسل)

ترعى الروائم أحرار البقول بها لا مثل رعيكم ملحاً وغسويلاً. اللسان ١١/٤٩٦ (غسل)

أما في تفسير أبي السعود فالأمر مختلف قليلاً؛ إذ لم تكن ظاهرة اختلاف الرواية ظاهرة على النحو الذي رأيناه في المعاجم، ولعل ذلك راجع إلى عدم تكرار الشواهد في التفسير على النحو الذي مرّ آنفا في معجم لسان العرب، فالشاهد الواحد قد يتكرر عشرات المرات، في حين لا نجد هذا التكرار في التفسير.

وها أنا ذا أورد بعضاً من تلك الشواهد التي وردت في التفسير برواية معينة في حين نجدها في مظانها مختلفة بعض الاختلاف عن روايتها في التفسير.

فعلى سبيل المثال أورد أبو السعود عند تفسير قوله تعالى: (هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً) الرعد ١٢، بيت النابغة الذي قال فيه:

وحلت بيوتي في يفاع ممنع تخال به راع الحمولة طائراً

حذاراً على أن لا ينال معاوني ولا نسوتي حتى يمتن حرائراً. (٩/٥)

بينما ورد في الديوان على النحو التالي:

وحلت بيوتي في يفاع ممنع يخال به راعي الحمولة طائراً [١٦].

كما أورد أيضاً عند تفسير قوله تعالى: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) آل عمران ١٦٩، قول لبيد بن ربيعة:

حسبت التقى والمجد خير تجارة رباحاً إذا ما المرء أصبح ثاقلاً

بينما ورد في الديوان:

حسبت التقى والجود خير تجارة رباحاً إذا ما المرء أصبح ثاقلاً [١٧].

ومن ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: (وندخلكم مدخلاً كريماً) النساء ٣١، وقرئ بفتح الميم [١٨]، وهو أيضاً يحتمل المكان والمصدر، ونصبه على الثاني بفعل مقدر مطاوع للمذكور، أي: ندخلكم فتدخلون مدخلاً أو دخولاً كريماً، كما في قوله:

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال إلا مسحت أو مجلف (١٧١/٢)

بينما ورد في ديوان الفرزدق:

وعض زمان يا ابن مروان لم يَدَع من المال إلا مسحت أو مجلف [١٩].

ومن اختلاف الرواية قوله عند تفسير قوله تعالى: (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) البقرة ٣٩، قيل كفروا بالآيات جَناناً وكذبوا بها لساناً، فيكون كلا الفعلين متوجهاً إلى الجارِ والمجرور، والآية في الأصل العلامة الظاهرة، قال النابغة:

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع (٩٣/١)

بينما ورد في الديوان:

توهمت آيات لها تعرفونها لستة أعوام وذا العام سابع[٢٠].

ومن خلال ما قدمناه من الأمثلة السابقة يتضح أن اختلاف الرواية يتنوع، بيد أن هذا الاختلاف في الغالب لا يترتب عليه أثر في المعنى.

ولعل رواية الشعر بالمشافهة زمناً غير قصير كان سبباً أو عاملا من عوامل اختلاف الرواية. وربما يؤدي هذا الاختلاف إلى الوقوع في بعض الأخطاء النحوية أو الصرفية [٢١].

٣ – التصحيف والتحريف:

من خلال الوقوف على بعض الشواهد الشعرية في تفسير أبي السعود، وجدنا أن هناك عدداً من الشواهد قد اعتراها التصحيف والتحريف، وقد يترتب على ذلك اختلال في الوزن، وهذا الاختلال ناتج إما عن سهو من المؤلف – رحمه الله – أو لخطأ في الطباعة، أو لعدم دقة المحققين.

ولنأخذ على سبيل المثال بعضاً من تلك الشواهد.

فعند تفسير قوله تعالى: (وهب لنا من لدنك) آل عمران ٨١، قال: وبعضهم يخصها بظرف المكان، وتضاف إلى صريح الزمان كما في قوله:

تنتفض الرعدة في ظهيري من لدن الظهر إلى العصير (٩/٢)

بينما ورد في شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، على النحو التالي:

تنتهض الرعدة في ظهيري من لدن الظهر إلى العصير[٢٢].

وقال عند تفسير قوله تعالى: (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) غافر ١١، فإن الإماتة والإحياء ينبئان عن الموت والحياة حتماً، وكأنه قيل: أمتنا فمتنا موتتين اثنتين، وأحييتنا فحيينا حياتين اثنتين على طريقة قول من قال:

وعضة دهر يابن مروان لم تدع من المال إلا مسحت أو مجلف (٢٦٩/٧)

بينما ورد الشاهد نفسه في ديوان الفرزدق على النحو الآتي:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف [٢٣].

وعند تفسير قوله تعالى:(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) البقرة١٧٧، قال: على أن البر خبر ليس مقدم على اسمها كما في قوله:

سلي إن جهلت الناس عني وعنهم فليس سواء عالم وجهول (١٩٣/١)

بينما أورده العيني على النحو الآتي :

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول [٢٤].

كما أورد بيت النابغة المشهور عند تفسير قوله تعالى: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) النساء ٢٢.

قال: استثناء مما نكح مفيد للمبالغة في التحريم باخراج الكلام مخرج التعليق بالمحال على طريقة قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب (١٥٩/٢).

بينما أوردشاهداً مشابهاً لهذه الحالة لعله لشاعر آخر عند تفسير قوله تعالى (إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) البروج ٨.

بعد قوله: استثناء مفصح عن براءتهم عما يعاب وينكر بالكلية على منهاج قوله:

ولا عيب فيهم غير أن ضيوفهم تلام بنسيان الأحبة والوطن (١٣٧/٩)

وهكذا نلحظ من خلال إيراد بعض الشواهد التي اختلفت فيها الرواية من مكان إلى آخر، وهذا ليس عيباً نلمز به أبا السعود فقد سبقه في ذلك عدد من المفسرين المشهورين – رحمهم الله – .

٤ – التكرار:

والمراد بالتكرار هنا هو: إعادة البيت الواحد أكثر من مرة للاستشهاد به إما معجمياً أو صرفياً أو نحوياً، وهذا التكرار ليس عيباً لأن البيت الواحد لا يعاد أكثر من مرة لغرض واحد، وإنما لأغراض متعددة معجمية أحياناً وصرفية أحياناً ونحوية أحياناً أخرى، وقد يعاد لغرض واحد ولكن من وجوه متعددة، كأن يكون في الشطر الأول شاهداً لقاعدة نحوية ، وفي الشطر الثاني شاهداً لقاعدة نحوية أخرى، وهكذا .

وهذه الإعادة ظاهرة تكررت عند كثير من علماء اللغة أو النحو بل والبلاغة أحياناً فليست بدعاً بين الكتاب والمؤلفين .

وسنحاول الوقوف عند بعض الشواهد التي تكررت عند أبي السعود فعلى سبيل المثال لا الحصر قول الفرزدق:

وعضة دهر يابن مروان لم تدع من المال إلا مسحت أو مجلف.

تكرر أكثر من مرة، وذلك بحسب الحاجة إليه، فمثلاً ورد هذا الشاهد عند تفسير قوله تعالى: (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق) الإسراء ٨٠،(١٩٠/٥)، كما أورده عند تفسير قوله تعالى: (فشربوا منه إلا قليلا منهم) البقرة ٢٤٩(٢٤٣/١)، وورد أيضاً عند تفسير قوله تعالى:(قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) غافر ١١(٢٦٩/٧).

كما أورده أيضاً عند تفسير قوله تعالى:(فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير)الملك ٦/٩)١١)

وورد أيضاً عند تفسير قوله تعالى: (وندخلكم مدخلاً كريماً) النساء ٣١ (١٧١/٢)

ومن الشواهد التي تكرر ورودها قول عنترة:

ألا أيها الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي(٥٧/٧)

ورد هذا الشاهد عند تفسير قوله تعالى: (ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً)الروم٢٤، حيث أورد الشطر الأول من البيت، مستشهداً به على أن الفعل مقدر بأن كما في قول من قال:وأورده البيت ... .

كما ورد عند تفسير قوله تعالى: (لا يسمعون إلى الملأ الأعلى) الصافات ٨(١٨٥/٧)،فقد أورد الشطر الأول للاستشهاد على أن الكلام مبتدأ مسوق لبيان حالهم – أي الشياطين – وهو أن لا يسمعوا، ثم يحذف أن ويهدر عملها، كما في قول من قال: وذكره.

وورد أيضاً عند تفسير قوله تعالى: (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون)الزمر ٦٤.

وهنا أورد البيت كاملاً مستشهداً به على أن أصله تأمرونني أن أعبد، فحذف أن ورفع ما بعدها كما في قوله...وذكر البيت.

كما ورد –أيضاً– عند تفسير قوله تعالى: (لا تعبدون إلا الله) البقرة ٨٣، قال: وقيل تقديره:أن لا تعبدوا فحذف الناصب ورفع الفعل كما في قوله. وذكر البيت (١٢٣/١).

وورد أيضاً عند تفسير قوله تعالى: (ولا تمنن تستكثر) المدثر ٦، قال: وقرئ بالنصب باضمار أن مع بقاء[٢٥] عملها تقول من قال..وذكر الشطر الأول.(٥٥/٩)، كما ورد –أيضاً– عند تفسير قوله تعالى:(فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم) المائدة٥٢، قال: قيل الفاعل هو الموصول والمفعول هو الجملة على حذف أن المصدرية والرؤية قلبية، أي ويرى القوم الذين في قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم، فلما حذفت (أن) انقلب الفعل مرفوعاً كما في قول من قال: وذكر موضع الشاهد وهو الشطر الأول (٤٩/٣).

ومن الشواهد التي تكرر ورودها قول عبدالله بن الزبير:

رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا

فرد شعور هن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

حيث ورد هذا الشاهد مرة عند تفسير قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين)، آل عمران ١٠٠

قال: وقوله تعالى (كافرين) مفعول ثان ليردوكم على تضمين الرد معنى التصيير كما في قوله وذكر البيتين – أو حال من مفعوله، والأول أدخل... (٦٤/٢)

كما ورد –أيضاً– عند تفسير قوله تعالى: (لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً) البقرة ١٠٩

قال: وقوله (كفاراً) مفعول ثان له على تضمين الرد معنى التصيير، أي يصيرونكم كفاراً كما في قوله....(١٤٦/١).

وتكرر الاستشهاد بالبيتين السابقين عند تفسير قوله تعالى:(وأنتم سامدون)النجم ٦١)

قال: أي لا هون أو مستكبرون،من سمد البعير إذا رفع رأسه، أو مغنون لتشغلوا الناس عن استماعه من السمود بمعنى الغناء على لغة حمير، أو خاشعون جامدون من السمود بمعنى الجمود والخشوع كما في قول من قال... (١٦٦/٨)

ومن الشواهد التي تكرر الاستشهاد بها قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

إذ أورده عند تفسير قوله تعالى:(والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) البقرة ٤.

فبعد أن تكلم على الآية وعلاقتها بالآية التي قبلها (الذين يؤمنون بالغيب) قال: ويجوز أن يجعل كلا الموصولين عبارة عن الكل مندرجاً تحت المتقين، ولا يكون توسيط العاطف بينهما لاختلاف الذوات بل لاختلاف الصفات كما في قوله... وذكر البيت (٣٢/١)

كما ورد عند تفسير قوله تعالى: (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس) النساء ٣٨

قال رحمه الله:أي للفخار، وليقال ما أسخاهم وما أجودهم، لا لابتغاء وجه الله تعالى، وهو عطف على (الذين يبخلون) أو على الكافرين، وإنما شاركوهم في الذم والوعيد، لأن البخل والسرف الذي هو الإنفاق فيما لا ينبغي من حيث إنهما طرفا تفريط وإفراط سواء في القبح واستتباع اللائمة والذم.

ويجوز أن يكون العطف بناء على إجراء التغاير الوصفي، فجرى التغاير الذاتي كما في قوله.. وذكر البيت، ولكن بلفظ: وليث الكتائب. (١٧٦/٢)

وأورده -أيضاً- عند تفسير قوله تعالى:(مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع) هود٢٤.

قال: الأدخل في المبالغة والأقرب إلى ما يسير إليه لفظ المثل والأنسب بما سبق من وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع وبعدم الابصار أن يحمل على تشبيه الفريق الأول بمن جمع بين العمى والصمم، وتشبيه الفريق الثاني بمن جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو في قوله تعالى (والأصم) وفي قوله (والسميع) لعطف الصفة على الصفة كما في قول من قال...وذكره (١٩٨/٤).

كما ورد -أيضاً- عند تفسير قوله تعالى: (والذين هم على صلاتهم يحافظون) المعارج ٣٤.

قال: وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخراً باعتبارين للدلالة على فضلها وإنافتها على سائر الطاعات، وتكرير الموصولات لتنزيل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات كما في قول القائل... وذكره بلفظ: وليث الكتائب... (٣٤/٩)

وورد أيضاً عند تفسير قوله تعالى: (والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً * فالسابقات سبقاً * فالمدبرات أمراً)، قال ما ملخصه: إقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الذين ينزعون الأرواح من الأجساد على الاطلاق... أو أرواح الكفرة.... والعطف مع اتحاد الكل بتنزيل التغاير الذاتي كما في قوله... وذكره (٩٥/٩).

الفصل الثاني

دراسة الوظائف المختلفة للشاهد الشعري عند أبي السعود

حظيت قضية الاستشهاد بالشعر باهتمام النحويين واللغويين منذ القديم، ونتيجة لهذا الاهتمام فقد ظهر رأيان: أحدهما يرى أنه يجوز الاستشهاد بكل شعر ورد عن شاعر عربي فصيح دون الالتفات إلى قضية الزمن الذي عاش فيه، والقبيلة التي ينتمي إليها.

والرأي الثاني: وهم الأكثرون الذين وقفوا من هذه القضية وقفه متشددة حيث قصروا الاحتجاج على فصحاء العرب حتى القرن الثاني الهجري في المدن، وحتى القرن الرابع من سكان البوادي، ولهذا فقد صنفوا الشعراء أصنافا خمسة:

١) جاهليون لم يدركوا الإسلام.
٢) مخضرمون أدركوا الجاهلية والإسلام.
٣) إسلاميون متقدمون وهم الذين كانوا في صدر الإسلام.
٤) أمويون
٥) محدثون.

أما الصنفان الأول والثاني فيحتج بشعرهم بالإجماع، وأما الثالث والرابع فالمشهور أنه يحتج بشعرهم، وأما الصنف الخامس فإنه لا يحتج بشعرهم في اللغة والنحو، ويستشهد به في الأدب والبلاغة[٢٦].

ولا شك أن القرآن يعد أصلاً من أصول الاستدلال على أي قضية نحوية؛ لأنه كلام الله الذي هو أفصح الكلام، فإذا وجد لفظ غريب مشكل فإن العلماء يرجعون إلى الشعر لبيان ذلك الحرف الغريب من القرآن.

قال ابوبكر بن الأنباري فيما ذكره عنه السيوطي: قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيراً الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر، وأنكر جماعة لا علم لهم على النحويين ذلك، وقالوا: إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن، قالوا: وكيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن، وهو مذموم في القرآن والحديث ؟

قال: وليس الأمر كما زعموه من أنا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى قال: (إنا جعلناه قرآناً عربياً) الزخرف٣، وقال: (بلسان عربي مبين) الشعراء ١٩٥[٢٧]، ولعل ذلك يفسر سبب وقوع المشاركة في بعض الشواهد الشعرية بين كتب النحو وكتب التفسير.

أما الشواهد الدلالية فإنها الغالب في كتب التفسير عامة، ولعل سبب ذلك راجع إلى أن كثيراً من ألفاظ القرآن الكريم يحتاج إلى تحديد دلالاتها تحديداً دقيقاً لما يترتب على تلك الدلالات من الأحكام التي تهم المسلمين.

وتشير الروايات التي وردت عن بعضهم إلى ذلك الإحساس، وهذا ما يفسر الغرض من مقولة ابن عباس المشهورة: (إذا أشكل عليكم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر، فإنه ديوان العرب)[٢٨].

ومن خلال قراءتنا لعدد من صفحات التفسير، وجدنا أن أبا السعود قد حرص حرصاً شديداً على الاستفادة من علماء النحو واللغة، ويشهد لذلك كثرة الشواهد النحوية واللغوية التي استشهد بها في تفسيره.

أما النوع الثالث من الشواهد الشعرية فهو ما يمكن أن يطلق عليه شواهد اللهجات العربية، وإنما يوردها للاستشهاد بها على ثبوت لهجة من اللهجات العربية والتي بدروها توضح لفظة من الألفاظ أو قراءة من القراءات غير المشهورة.

وشواهد اللهجات الواردة في تفسير أبي السعود جاءت في مواطن مختلفة، وأماكن متعددة، وذلك حسب ما تقتضيه الحاجة، شأنها في ذلك شأن شواهد القراءات التي أتت متنوعة تبعاً لتلك القراءات التي قد يكون الاختلاف فيما بينها بالأصوات، أو في هيئة الكلمة، أو في التركيب، أو في الدلالة.

أما الشواهد البلاغية فإنما جئ بها أحياناً لتوضيح قضية بلاغية تضمنتها الآية المراد تفسيرها.

وأخيراً فإن هناك شواهد عامة لا تتصل بمسائل اللغة أو النحو، وإنما وردت قليلاً لتأييد قضية عامة.

وسوف أفرد لكل نوع من هذه الشواهد جزءاً مناسباً من هذه الصفحات كل بحسب وظيفته وتنوع الاستشهاد به، سواء من الناحية النحوية أو الصرفية أو البلاغية أو اللهجية، أو للاستدلال على قراءة قرآنية معينة، كما أنني سأشير إلى كل شاهد في موطنه، إن شاء الله تعالى.

أ - الشواهد النحوية والصرفية:

- ورد الشاهد الآتي للاستدلال على انه يجوز أن يكون لكان الناقصة مصدر، وهو قول الشاعر:

ببذلٍ وحلمٍ ساد في قومه الفتى وكونك إياه عليك يسير

حيث أورد هذا الشاهد عند تفسير قوله تعالى:(ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) البقرة ١٠.

قال: (الباء) للسببية أو للمقابلة، و(ما) مصدرية داخلة في الحقيقة على (يكذبون) وكلمة (كانوا) مقحمة لإفادة دوام كذبهم وتجدده، أي: بسبب كذبهم أو بمقابلة

كذبهم المتجرد المستمر الذي هو قولهم: (آمنا بالله وباليوم الآخر)، وهم غير مؤمنين، فإنه إخبار بإحداثهم الإيمان فيما مضى لا إنشاء الإيمان، ولو سلم فهو متضمن للإخبار بصدوره عنهم، وليس كذلك لعدم التصديق القلبي بمعنى الإذعان والقبول قطعاً.

ويجوز أن يكون محمولاً على الظاهر بناءً على رأي من يجيز أن يكون لكان الناقصة مصدر كما صرح به في قول الشاعر... وذكره (٤٢/١).

• وعند تفسير قوله تعالى: (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) البقرة١٧.

قال: (وترك) في الأصل بمعنى طرح وخلّى، وله مفعول واحد، فضمن معنى التصيير مجرى أفعال القلوب.

قال: فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم (٥١/١)

وجمع بين اللغة والنحو عند تفسيره لقوله تعالى:(فاستجاب لهم ربهم)آل عمران١٩٥.

حيث قال: الاستجابة بمعنى الإجابة، ثم نقل عن تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني ،المتوفى سنة ٥٠٥هـ، قوله: الإجابة عامة والاستجابة خاصة بإعطاء المسئول، وتتعدى باللام وبنفسها كما في قوله:

فلم يستجب له عند ذاك مجيب

قال: وهو عطف على الاستئناف المقدر فيما سلف مترتب على ما في حيّزه من الأدعية. (١٣٣/٢)

وعند تفسير قوله تعالى: (كتاب الله عليكم) النساء ٢٤.

قال: (كتاب الله) مصدر مؤكد، أي كتب الله (عليكم) تحريم هؤلاء كتاباً، وفرضه فرضاً وقيل: منصوب على الإغراء بفعل مضمر أي: الزموا كتاب الله، و (عليكم) متعلق إما بالمصدر، وإما بمحذوف وقع حالاً منه.

وقيل: هو إغراء آخر مؤكد لما قبله ق، حذف مفعوله لدلالة المذكور عليه، أو بنفس "عليكم " على رأي من جوز تقديم المنصوب في باب الإغراء كما في قوله:

يا أيها المائح دلوي دونكا إني رأيت الناس يحمد ونكا. (٢/١٦٤).

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وندخلكم مدخلاً كريماً) النساء ٣١.

قال: أي حسناً مرضياً، أو مصدر ميمي، أي إدخالاً مع كرامة، وقرئ بفتح الميم وهو أيضاً يحتمل المكان والمصدر، ونصبه على الثاني بفعل مقدر مطاوع للمذكور، أي ندخلكم فتدخلون مدخلاً، أو دخولاً كريماً كما في قوله:

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال إلا مسحت أو مجلف[٢٩]

أي لم تدع فلم يبق إلا مسحت الخ. (٢/١٧١)

وفي معرض مناقشته للعامل الذي نصب (يوم) به في قوله تعالى: (ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم) هود٨.

قال: ويوم منصوب بخبر ليس مقدم عليه... إلى أن قال: قال أبو حيان: وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليه، ولا بتقديم معموله إلا ما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة، وقول الشاعر:

فيأبى فما يزداد إلا لجاجة وكنت أبياً في الخنا لست أقدم.(٤/١٨٩)[٣٠] .

وعند تفسير قوله تعالى: (ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً) الفرقان ٦٩.

قال (يضاعف له العذاب يوم القيامة) بدل من يلق لاتحادهما في المعنى كقوله:

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا تجد حطباً جزلاً وناراً تأججاً (٦/٢٣٠)

وعند تفسير قوله تعالى: (أمهلهم رويداً) الطارق ١٧.

قال: إما مصدر مؤيد لمعنى العامل، أو نعت لمصدره المحذوف، أي: أمهلهم إمهالاً رويداً، أي قريباً كما قاله ابن عباس- رضي الله عنهما - أو قليلاً كما قالهُ قتادة.

قال أبو عبيدة: هو في الأصل تصغير رود بالضم وأنشد:

كأنها ثمل تمشي على رود .....

أي على مهل (٩/١٤٢).

ب - الشواهد اللغوية والدلالية:

كثيراً ما يستعين المفسرون بالشواهد الشعرية لتوضيح لفظ من الألفاظ أو معنى من المعاني وهذا أمر طبعي، إذ لا يمكن للمفسر أن يعتمد على المعاجم اللغوية لأن مفرداتها جافة، بل إن المعجم يعطيك المعنى الحرفي للكلمة، بينما الشاهد الشعري يوضح المعنى المراد من خلال السياق، وهذا يعطي المفسر دقة في تحديد الدلالة الحقيقية للفظة المفردة، وهو ماجرى عليه أبو السعود في تفسيره، وهذا ما سوف نتبينه من خلال الأمثلة الآتية:

قال رحمه الله عند تفسير البسملة: والاسم عند البصريين من الأسماء المحذوفة الأعجاز المبينة الأوائل على السكون قد أدخلت عليها عند الابتداء همزة، لأن من

دابهم البدء بالمتحرك والوقف على الساكن، ويشهد له تصريفهم على أسماء وسُـمَيَ وسميت وسمى كهدى لغة فيه قال:

والله أسماك سما مباركا آثرك الله به ايثاركا (٩/١).

كما ناقش الإمام أبو السعود اللغات الشاذة، كقوله عند تفسير قوله تعالى: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) البقرة ٨.

وأصل ناس أناس، كما يشهد له إنسان وأناسي وإنس، حذفت همزته تخفيفاً كما قيل: لوقة في ألوقة، وعوض عنها حرف التعريف، ولذلك لا يكاد يجمع بينهما وأما في قوله:

إن المنايا يطّلعـــــ ـــن على الأناس الآمنينا

فشاذ، سمّوا بذلك لظهورهم، وتعلق الأناس بهم، كما سمّى الجن جناً لا جتنائهم(٣٩/١)

٢) وعند تفسيره لقوله تعالى: (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) هود ٨٥.

قال: إن (العثي) يعم نقص الحقوق وغيره من أنواع الفساد، وقيل البخس: المكس، كأخذ العشور في المعاملات، قال زهير بن أبي سلمى:

أفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم.

والعثي في الأرض: السرقة، وقطع الطريق والغارة، وفائدة الحال إخراج ما يقصد به الإصلاح، كما فعله الخضر – عليه السلام – من خرق السفينة وقتل الغلام، وقيل معناه: ولا تعثوا في الأرض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم (٢٣٢/٤).

٣) وعند تفسير قوله تعالى: (فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا . .) يوسف ٣١، أي: ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد، أو رتبت لهن مجلس طعام وشراب، لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين، ولذلك نهي الرجل أن يأكل متكئاً، وقيل: متكأ طعاماً من قولهم: إتكأنا عند فلان أي طعمنا، قال جميل:

فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله (٤/٢٧١) [٣١] .

٤) وعند تفسير قوله تعالى: (فلما رأينه أكبرنه) يوسف ٣١.

قال: ((أكبرنه) عظمنه وهبن حسنه الفائق، وجماله الرائع الرائق، فإن فضل جماله على جمال كل جميل كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.. وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس على الماء، وقيل معنى (أكبرن): حضن، والهاء للسكت أو ضمير راجع إلى يوسف عليه السلام – على حذف اللام، أي حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبي:

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت في الخدور العواتق(٤/٢٧٢)[٣٢]

ج – شواهد القراءات القرآنية:

القراءات : جمع قراءة، وهي في اللغة مصدر قرأ، يقال: قرأ يقرأ قراءة، وقرآنا بمعنى تلا، فهو علم بكيفيات أداء كلمات القرآن الكريم، من تخفيف وتشديد، واختلاف ألفاظ الوحي في الحروف،[٣٣]،ولا شك أن نزول القرآن على سبعة أحرف، فيه مظهر من مظاهر رحمة الله وتخفيفه على عباده، وتيسيره لكتابه على كافة القبائل العربية، بل على جميع شعوب الأمة الإسلامية من كل جيل وقبيل ، حتى ينطقوا به لينة ألسنتهم سهلة لهجاتهم، برغم ما بينهم من اختلاف في اللغات، وتنوع في

الخصائص والميزات، ولا شك أن علم القراءات يشاهد فيه القارئ عرضاً عاماً لمنتجات أفكار كثيرة، ويشهد جيشاً جراراً من مذاهب وآراء، كلها تحاول العمل لخدمة هذا العلم الجليل، وإظهار الحق والدفاع عن عرين القرآن والإسلام واللغة[٣٤]

١) قال الإمام أبو السعود عند تفسير قوله تعالى: (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) هود ١٥.

وقرئ (يوف) على الإسناد إلى الله – عز وجل – وتوف بالفوقانية على البناء للمفعول ورفع أعمالهم، وقرئ نوفي بالتخفيف والرفع لكون الشرط ما ضياً[٣٥] كقوله:

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالي ولا حرم.(١٩٣/٤)

٢) وعند تفسير قوله تعالى: (نزلاً من عند الله)، آل عمران ١٩٨.

قال وقرئ بسكون الزاي[٣٦] وهو ما يعد للنازل من طعام وشراب وغيرهما. قال أبو الشعر الضبي:

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا (١٣٥/٢)

٣) وعند تفسير قوله تعالى: (فإن آنستم منهم رشداً) النساء ٦.

قال: أي شاهدتم وتبينتم، وقرئ أحستم بمعنى أحسستم[٣٧]، كما في قول من قال:

خلا أن العتاق من المطايا أحسن به وهن إليه شوس (١٤٥/٢)

٤) وقال عند تفسير قوله تعالى: (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض) النمل ٢٤/٢٥.

والمعنى فهم لا يهتدون على أن يسجدوا لله تعالى، وقرئ: ألا يا اسجدوا على التنبيه والنداء، والمنادى محذوف، أي ألا يا قوم اسجدوا [٣٨] كما في قوله:

ألا يا اسلمي يا دار مَيَّ على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر (٦/٢٨١).

٤) وعند تفسير قوله تعالى (فاذكروا اسم الله عليها صواف) الحج ٣٦.

قال: أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وقرئ صوافن من صَفَن الفرس إذا قام على ثلاث وعلى طرف سنبك الرابعة، لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وقرئ صوافنا بإبدال التنوين من حرف الإطلاق عند الوقف، وقرئ صوافي أي خوالص لوجه الله – عز وجل – وصاف على لغة من يسكن الياء على الإطلاق[٣٩]، كما في قوله:

..... لعلي أرى باق على الحدثان (٦/١٠٧)

د – شواهد القضايا البلاغية:

تحسن الإشارة –قبل البدء بسرد بعض الشواهد التي استشهد بها الإمام أبو السعود لإثبات قضية من القضايا البلاغية– إلى أن العلوم العربية وعلوم القرآن كانت مختلطة حتى القرن الثالث الهجري [٤٠]، وظلت كذلك في بعض جوانبها حتى الآن، وخاصة فيما يتعلق بإعجاز القرآن اللغوي، فكتب اللغة القديمة لم تكن تفصل مسائل النحو عن مسائل علم اللغة ومعاجم العربية وكتب البلاغة والتفسير: لم تكن تفصل علم البلاغة عن فروعه الثلاثة: علم الإعجاز، وعلم النقد الأدبي، والدراسات

الشعرية، وكل أولئك كانوا يبدون ملاحظات مختلفة عن بلاغة القرآن وصوره البيانية .

وكلام الله – سبحانه– أبلغ الكلام، شهد بذلك العدو والصديق، ولعل مقولة الوليد بن المغيرة خير دليل على ذلك. روى ابن هشام في السيرة قول الوليد بن المغيرة: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصلة لَعَذَق وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف بأنه باطل [٤١].

وسأضرب بعض الأمثلة التي وردت في ثنايا التفسير، واستشهد بها المؤلف على بلاغة القرآن وإعجازه:–

١) قال أبو السعود عند تفسيره لقوله تعالى: (ولهم عذاب أليم) البقرة ١٠، أي مؤلم، يقال ألِمَ وهو أليم، كوجع وهووجيع، وصف به العذاب للمبالغة كما في قوله:

..... تحية بينهم ضرب وجيع (١/٤٢).

٢) وقال عند تفسير قوله تعالى: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) البقرة ١٦.

والضلالة: الجور عن القصد، والهدى: التوجيه إليه، وقد استعير الأول للعدول عن الصواب في الدين، والثاني للاستقامة عليه، والإشتراء استبدال السلعة بالثمن أي أخذها به لا بذلها لتحصيلها كما قيل، وإن كان مستلزماً له، فإن المعتبر في عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب الذي هو معتبر في عقد البيع، ثم استعير لأخذ شيء بإعطاء ما في يده عيناً كان كل منهما او معنى لا للإعراض عما في يده محصلاً به غيره كما قيل، وإن استلزمه لما مَر سِرُّه، ومنه قوله:

أخذت بالجمة رأساً أزعرا بالثنايا الواضحات الدردرا [٤٢]

وبالطويل العمر عمراً جيدرا كما اشترى المسلم إذ تنصرا (١/٤٨)

٣) وعند تفسير قوله تعالى: (فما ربحت تجارتهم) البقرة ١٦.

قال أبو السعود: يقال: ربح فلان في تجارته، أي استشف فيها وأصاب الربح، وإسناد عدمه الذي هو عبارة عن الخسران إليها وهو لأربابها – بناء على التوسع المبنى على ما بينهما من الملابسة، وفائدته المبالغة في تخسيرهم لما فيه من الإشعار بكثرة الخسارة وعمومه المستتبع لسرايته إلى ما يلابسهم، وإيرادهما إثر الإشتراء المستعار للاستبدال المذكور ترشيح للاستعارة، وتصوير لما فاتهم من فرائد الهدى بصورة خسارة التجارة الذي يتحاشى عنه كل أحد للإشباع في التخسير والتحسير، ولا ينافي ذلك أن التجارة في نفسها استعارة لانهماكهم فيما هم عليه من إيثار الضلالة على الهدى، وتمرنهم عليه معربة عن كون ذلك صناعة لهم راسخة، إذ ليس من ضروريات الترشيح أن يكون باقياً على الحقيقة تابعاً للاستعارة لا يقصد به إلا تقويتها كما في قولك: رأيت أسداً وافي البراثن، فإنك لا تريد به إلا زيادة تصوير الشجاع، وأنه أسد كامل من غير أن تريد بلفظ البراثن أيَّ معنى آخر، بل قد يكون مستعاراً من ملائم المستعار منه لملائم المستعار له، ومع ذلك يكون ترشيحاً لأصل الاستعارة كما في قوله:

فلما رأيت النسر عز ابن داية وعشعش في وكريه جاش له صدري [٤٣] (٤٩/١).

٤) وعند تفسير قوله تعالى: (وإذا أظلم عليهم قاموا) البقرة ٢٠.

قال: أي : خفي البرق واستتر، والمظلم وإن كان غيره لكن لما كان الإظلام دائراً على استتار أسند إليه، مجازاً تحقيقاً لما أريد من المبالغة في موجبات تخبطهم، وقد جوز أن يكون متعدياً منقولاً من ظلم الليل، ومنه ما جاء في قول أبي تمام:

هما أظلما حالي ثمة أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب (٥٥/١).

الخاتمة:

لعل هذه الدراسة قد كشفت لنا بوضوح مدى أهمية الشاهد الشعري في كتب التفسير، سواء من الناحية المعجمية أو الدلالية أو البلاغية أو النحوية، فلا يكاد مفسر من المفسرين إلا ويعتمد كثيراً أو قليلاً على إيراد عدد من تلك الشواهد ليدلل بها على قضية من القضايا، نحوية كانت أم صرفية أم بلاغية أم دلالية.

ولقد ظهرت لنا شخصية أبي السعود في كثير من تلك القضايا التي كان يناقشها آخذاً بعضاً منها ومفنداً البعض الآخر، وهذا يدل على سعة علمه وإلمامه الواسع بعلوم اللغة ومستوياتها المختلفة، وأكبر دليل على ما قلناه إفادته – رحمه الله – من عدد كبير من المصادر اللغوية والنحوية.

ولعل ما ظهر لنا من خلال البحث من بعض الأخطاء لا يقلل من شأن هذا العالم الفذ، ولا من شأن تفسيره، لاسيما وقد تلقاه العلماء والمختصون بالقبول، وأقبل عليه طلاب العلم ينهلون من معينه، فجزاه الله عنا خيراً ونفع بكتابه كل طالب للعلم..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

الهـــــوامـش

١) أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً. انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ٣/٢.

٢) انظر الشعر الجاهلي للدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي، صـــ٩٥.

٣) الأيام: الوقائع التي حدثت في تلك الأيام، وفي القرآن الكريم:(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله) سورة إبراهيم آية (٥).

قال الزمخشري : أي انذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها، أهـــ. الكشاف٢/٣٦٧.

٤) شرح القصائد العشر للإمام التبريزي ، ضبطه وصححه : عبدالسلام الحوفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٨٧م ، صـــ٢٦٢.

٥) انظر العصر الجاهلي / للدكتور شوقي ضيف، صـــ ١٣٤

٦) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ٣٥٦/١.

٧) انظر خزانة الأدب، ٨/١.

٨) انظر الإتقان، ٣٢٧/١.

٩) المصدر السابق، ٣٢٧/١-٣٢٨.

١٠) انظر التفسير والمفسرون للذهبي، ٢٤٧/١.

١١) انظر مقدمة تفسير أبي السعود، ٤/١.

١٢) التفسير والمفسرون،٣٤٩/١.

١٣) انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب للعماد الحنبلي، ٣٩٨/٨، وكشف الظنون لحاجي خليفة، ٦٥/١، والاعلام للزركلي ٥٩/٧.

١٤) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، حققه وشرحه صلاح الدين الهادي ، دار المعارف القاهرة، صـــ٤٣٢..

١٥) وهي قراءة شاذة لم يقرأ بها أحد من القراء العشرة بل الأربعة عشر. انظر إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر صـــ ٣٩٨،وقد نسبها أبو حيان إلى الجحدري. راجع البحر المحيط، ١٢٥/٨.

١٦) ديوان النابغة الذبياني (سلسلة ذخائر العرب) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف –مصر/ القاهرة– ص٣ صـــ٦٧.

١٧) انظر ديوانه، صـــ٢٤٦.

١٨) وهي قراءة الإمام نافع وأبي جعفر المدنيين: "النشر في القراءات العشر" لابن الجزري، ٢٤٩/٢.

١٩) انظر ديوان الفرزدق، ٦٢/٢/ دار صادر – بيروت – لبنان .

٢٠) انظر شرح ديوان النابغة، صـــ ٥٢

٢١) انظر ضحى الإسلام، صـــ١٩٠–صـــ٢٠١.

٢٢) انظر شرح ابن عقيل، ٦٨/٢، رقم الشاهد ٢٣٢.

٢٣) انظر ديوانه، ٢٦/٢، والخزانه، ٢٤٧/٢، واللسان، ٣٨٢/٨ مادة " ودع" ٣١/٩ (جلف)، والخصائص ٩٩/١، وبلا نسبة في الإنصاف، صـــ١٠٩، ورواية الشاهد في الخصائص :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلف

٢٤) انظر شرح الشواهد للعيني، ١٨٤/١.

٢٥) وهي قراءة الحسن والأعمش – انظر البحر المحيط، ٣٧٢/٨ وقرأ الحسن – وهو من القراء الأربعة بعد العشرة بالجزم بدلاً من الفعل قبله. إتحاف فضلاء البشر، صـــ٤٢٧.

٢٦) انظر الخزانة، صـــ٥،٦.

٢٧) انظر الإتقان، ١/١١٩.

٢٨) انظر الإتقان، ١/٣٥٦.

٢٩) ديوان الفرزدق ، ج٢،صـــ٢٦

٣٠) راجع البحر المحيط، ٥/٢٠٦، وفيه : كنت أبياً في الخفا....

٣١) انظر الكشاف ٢/٣١٦ وفتح القدير ٢/٢١.

٣٢) وهو من شواهد الزمخشري في الكشاف، ٢/٣١٧ ،وراجع فتح القدير ٢/٢٢.

٣٣) انظر لمحات من علوم القرآن واتجاهات التفسير، ١٠٧، محمـــد الشـــباع ، ط/ المكتـــب الإسلامي بيروت ١٣٩٤هـــ والقراءات وأثرها في علوم العربية صـــ٩، للدكتور محمد سالم محيسن، مكتبات الكليات الأزهرية ١٤٠٤هـــ .

٣٤) انظر مناهل العرفان للزرقاني ١/١٣٧ ، ط / عيسى البابي الحلبي (بدون)

٣٥) قراءة الجمهور بنون العظمة وبقية القراءات التي ذكرها أبو السعود وغيره قراءات شاذة، انظر اتحاف فضلاء البشر، صـــ ٢٢٥، والبحر المحيط، ٥/٢١٠، ورح المعاني مجلد، ٤/٢٣.

٣٦) قرأ بذلك لغة الحسن والمطوعي وهي قراءة شادة، اتحاف فضلاء البشر، صـــ١٨٤، وانظر البحر المحيط، ٣/١٤٧.

٣٧) وهي لغة لقبيلة سليم ونسبها أبو حيان إلى ابن مسعود – رضي الله عنه – وهي شاذة، انظر البحر، ٣/١٧٢، والكشاف حيث ذكر الشطر الثاني موضع الشاهد (١/٥٥٢)

٣٨) قال الشيخ الدمياطي : واختلف في (ألايسجدوا) فالكسائي وكذا رويس – الراوي عن يعقوب الحضرمي– وأبو جعفر بهمزة مفتوحة وتخفيف اللام على أن (ألا) للاستفتاح، ثم قيل يا حرف تنبيه، وجمع بينه وبين (ألا)تأكيدا، وقيل للنداء والمادي محذوف، أي ياهؤلاء أو يا قوم... اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، صـــ٣٣٦،

وانظر البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، صـــ٢٣٢، وراجع البحر المحيط، ٦٨/٧.

٣٩) وكلها شاذة لم يقرأ بها أحد من القراء السبعة أو العشرة وهي لغات، وراجع الكشاف للزمخشري، ١٤/٣.

٤٠) انظر المجاز في البلاغة العربية، صـــ٤٦.

٤١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢٨٩/١، وراجع السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لأبي شهبة، ٣٠٩/١.

٤٢) البيتان ذكرهما الزمخشري في الكشاف للاستشهاد بهما على أن الإشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر أهـــ، ١٩١/١

٤٣) البيت ذكره الزمخشري في الكشاف، ١٩٣/١. وراجع كلام ابن المنير الاسكندري في تعليقه على الكشاف، نفس الجزء والصفحة.

المراجـــع

١) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر للدمياطي الشهير بالبناء... تصحيح وتعليق على محمد الضباع ط / المشهد الحسيني – القاهرة ١٣٥٩هـ.

٢) الإتقان في علوم القرآن / جلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم العربية، بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م و ط / المشهد الحسيني، الأولى ١٣٨٧هـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

٣) الأعلام للزركلي (قاموس تراجم) دار العلم للملايين- بيروت – لبنان ط/ السادسة ١٩٨٤م.

٤) الإنصاف في مسائل الخلاف / أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر- الطبعة الرابعة ١٣٨٠هـ ١٩٦١م.

٥) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ط/ دار الفكر – بيروت – لبنان.

٦) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة لشيخنا عبد الفتاح القاضي – رحمه الله – ط / مصطفى البابي الحلبي، مصر – الأولى عام ١٣٧٥هـ -١٩٥٥م

٧) البلاغة العربية تطور وتاريخ، الدكتور: شوقي ضيف، دار المعارف.

٨) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب / عبدالقادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح عبد السلام هارون – الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٧٩م.

٩) الخصائص / أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد على النجار – الطبعة الثانية، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت – لبنان.

١٠) ديوان زهير بن أبي سلمى، دار صادر – بيروت – لبنان.

١١) ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت – لبنان.

١٢) ديوان لبيد بن أبي ربيعة– دار صادر، بيروت – لبنان.

١٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي البغدادي ط/ دار الفكر – بيروت ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

١٤) السيرة النبوية / ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأنبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار القلم – بيروت – لبنان.

١٥) السيرة النبوية – في ضوء القرآن والسنة – للدكتور محمد أبو شهبة. دار القلم – دمشق، ط / الاولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م

١٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب للمؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار الفكر للطابعة والنشر.

١٧) شرح ديوان النابغة الذبياني / منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان.

١٨) شرح الشواهد للعيني بها مش شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٩) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق الدكتور: محمود مصطفى حلاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

٢٠) شرح المعلقات السبع / القاضي الإمام أبو عبدالله الحسين الزوزني، مكتبة المعارف – بيروت – الطبعة الخامسة– ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٢١) الشعر الجاهلي / الدكتور: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني- بيروت – الطبعة الثانية ١٩٧٣م.

٢٢) ضحى الإسلام/ الأستاذ/ احمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة – الطعبة الأولى

٢٣) ظهر الإسلام / الأستاذ: احمد أمين، القاهرة، ط(الأولى)، ١٩٥٨م.

٢٤) العصر الجاهلي / الدكتور: شوقي ضيف، دار المعارف – مصر، الطبعة السابعة ١٩٧٩م

٢٥) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام محمد بن علي الشوكاني – دار الفكر – بيروت – لبنان –، ط/ الثالثة ١٣٩٣هـ

٢٦) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل للإمام الزمخشري، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

٢٧) كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، دار العلوم الحديثة، بيروت – لبنان.

٢٨) لسان العرب / الإمام العلامة ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

٢٩) المجاز في البلاغة العربية / الدكتور: مهدي صالح السامرائي، دار الدعوة – حماة – سورية، الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

٣٠) النشر في القراءات العشر للإمام ابن الجزري. ط / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان توزيع دار الباز – مكة المكرمة.